

حَاجَتُنَا إِلَى التَّعَبُّةِ الْعِلْمِيَّةِ

الدكتور محمد يحيى الهاشمي

رئيس جمعية الأبحاث العلمية
حلب (سوريا)

كان القدماء فيما مضى يؤلهون القوة الطافية الجبارة ، لانهم كانوا حيارى لا يدرون من امرهم شيئا ولا يجدون من علمهم مخرجا ، فكان القدماء معدورين في تلك الاتكالية المقيمة ، بل العائقة ايضا في التقدم والاستفادة من مرافق الحياة . اما نحن فغير معدورين في مثل هذا العقم وهذا الخضوع الاعمى . وان السر الحقيقي في هذا التقدم بين الامم هو في التعاون والتكاتف للبحث والتنقيب . تعاونت الامم فتقدمت ولا يمكننا التقدم الا بضم جهودنا الى بعضها بعضا ، وفتح العقول والافئدة للعلوم النافعة وتطبيقاتها العملية ، فالعلم لا يدرس في المعاهد ، والجامعات نحسب ، بل في المخابر والمصانع والمعامل . ومن ثم انه تلك الانقلابات الحيوية التي نجدها في عالم الطب والزراعة والكيمياء والميكانيك والكهرباء والطاقات المختلفة ، فالامم التي كانت في فقر مدقع من جراء ضعف اراضيها في قوة الانبات وصناعاتها متاخرة من جراء قلة مواد الخام والخبرة الفنية ، فبفضل تطبيق العلم على العمل بدلت معالم اراضيها من ضعف في الانبات الى قوة فائقة في ذلك ، فوجدت لها منبعا

في عام 1954 القيت في قاعة دار الكتب الوطنية في حلب محاضرة بعنوان « لماذا تخلف العرب عن الكشوف العلمية ؟ » ، وامتدت القاءها مع بعض تمديلات على مدرج الجامعة اللبنانية في بيروت في عام 1956 ، ونوهت عنها في المحاضرة التي كنت أقيتها في نفس العام على مدرج الجامعة السورية في دمشق عن الفوسفات ، وقد نشرت نفس الموضوع في اللسان العربي (عدد 5 ، 1967) بعنوان « العرب والكشوف العلمية » ، ولا بد لي هنا من التنبيه الى حاجتنا للتعينة العلمية لمعالجة تخلفنا عن الامم الراقية ، لان هذا التخلف او بالاحرى التخالذ الذي يلينا به جعل الشقة بيننا وبين المتقدمين بعيدة جدا (1) ، قد نشعر بذلك شعورا صادقا ، ولكننا لا نجد الحاجة الضرورية لتلافي الاخطاء الماضية . وان مجازاة الامم المذكورة في هذه الميادين الحيوية والفعالة لا ياتي بالكلام ولا بالتمني ، بل لا بد من العمل الشمر المنتظم والتعاون والتكاتف . ان عهد المتعة والتقديس ، والاتكالية السلبية قد مضى ، واتي عهد الفكر الصائب والتنفيذ المجدي ، متكافئين لا متخالدين .

(1) لاجل ضرب مثل على تأخرنا وتقدم غيرها من الامم ، فانه تابئني في كل اسبوعين جريدة الكيمياء Chemikerzeitung التي تصدر في هايدلبرغ ولى كل عدد اخبار عن اكتشافات ملعن عنها واكتشافات تملطى بزموز فقط ، ولاجل معرفتها يلزم الاتصال بالبيئات اللازمة لكشف النقاب عنها بشروط خاصة ، واتي لا اكاد اطلع على الكشوف الملن عنها فقط ، حتى تفاجئني كشوف جديدة في العدد الجديد ، ونحن منذ الاجيال لم نسجل ولو كشفا واحدا له قيمة . هذا في فرع من فروع العلم فقط .

ثم الى وضع برامج مدروسة مفصلة بطرائق الاستنباط والاستغلال والتصنيع .

لم تمد الحياة تطبيق التواني ولم يعد لتخلف مكان فيها . ولا يزال العلم في حاجة الى المزيد من التقدير ، ولو انه اعطي من الرعاية ما يستحقه لانادات الامة منه خيرا كثيرا ، ولو امكن استخدام العلم في مشروعاتنا لارتفع الانتاج وقلت التكاليف وارتفع مستوى الحياة بين افراد الشعب وكان التقدم العلمي المستمر يخلق ثروات اقتصادية ، ولذلك ينبغي تتبع التقدم في العلم والتصرف على موارد الثروة عندنا ، فالعلم تنفق على البحث العلمي بسخاء ، والغريبون مع كثرة المنتسبين للعلم يحفظون كرامة العالم ويسعون دوما لرفع مكانته وتقديره ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . اما نحن فان غايتنا من العلم غاية محدودة ، وهي اما التوظيف او معاطاة بعض المهن المحدودة مثل الطب والصيدلة او غير ذلك للكسب الفردي ، لا لازدياد الثروة القومية واذا حدث ذلك فانه بالنسبة قليل . ونسبي علمنا بالعلم التجاري ، والتجاري الذي يريد الثروة القومية ويؤمن الربح الفردي ايضا . اننا نقول ان فلانا موفق في علمه ومقياس ذلك انه جنى ثروة فردية دون ان يتقدم في اختصاصه ، كما اننا نقول ان فلانا فاشل في عمله وان كان من المساهمين في نهضة صناعية زادت في الثروة القومية ، لانه لم يجن ثروة خاصة . ان الصناعات المحدودة مثل معامل الغزل والنسيج او معامل الاسمنت او الزجاج او غيرها هي ثمرة من ثمرات المتخصصين ، ولو اننا اعطينا لهؤلاء المتخصصين ما يليق بهم من العون المادي او المعنوي لكان للنهضة الصناعية شأن غير شأنها .

ان العلم والتطبيق يحتاجان دوما الى المران والممارسة وان اصحاب الشركات ورجال الاموال ، وجميع الموجهين للمقدرات في الاقطار العربية كلهما مسؤولون عن صقل مواهب الاختصاص ، ولا يخفى ان الاشراك في العمل يكون السبب في صقل المواهب وشحذ القابلية ورفع السوية وجعل البصر حادا ، كما ان الاهمال يعمل مكس ذلك فانه يقتل نواة القابلية في الصميم . يجب علينا الافتخار بقابليات فذة في البلاد ، كما علينا اذا وجدنا من هم ضعفاء في اختصاصهم القيام بتنمية ذلك والابتعاد عن الغلو في ادعاء العلم وزيادة التقدير .

جديدا للخامات الصناعية وسوقا للمنتوجات . ان التخطيط العلمي يلزم ان يمشي مع التخطيط الاقتصادي جنباً الى جنب ، لاننا متى ما علمنا ان من ثمرات العلم النتائج الاقتصادية اقبلنا عليه الاقبال الكلي ، فمن الضروري تنظيم هذا التخطيط العلمي وجعله يسير مع التقدم الصناعي والزراعي جنباً الى جنب ، فالعلم يلزم ان يكون هو المسيطر في حل مشاكلنا في الحرب والسلام على السواء ، لان هذه الامور لا تزدهر الا بالعلم وان الصناعات التي لا تعتمد على ذلك بادت امام الصناعات الحديثة التي اتخذت من العلم هاديا واماما .

نحن نضجع كثيرا من الاوقات في البحث عن الالفاظ بدلا من الترجمة راسا من قبل اختصاصيين في الموضوع ممن عرفوا لغتهم جيدا مع فتح المختبرات للتجارب والاستفادة العملية . ولو ان سلفنا في العهد العباسي عمل ما عملنا لما ترك لنا تراثا شامخا ادرك العالم المتحدث اليوم اهميته وقيمته . ولو ان اليابان لم يقتبس علوم الغرب وصناعاتها راسا وسلسك سلوكنا لبقي حتى اليوم يبحث عن الالفاظ الجوفاء وكان من المتخلفين مثلنا ، ولعله بقي في مؤخرة الامم بدلا من ان يكون في مقدمتها . ان من يريد تعلم السباحة لا يضيع اوقاته في معرفة الالفاظ المتعلقة في السباحة بل عند دراسة قوانينها ان يشديه القول على العمل راسا . حتى اننا يلزم لمعرفة القانون العلمي وضع التدرج المختلفة التي توصلنا من الجزئي الى الكلي .

ان هناك الكثيرين من المدرسين في الاعدادي والثانوي والجامعي مع الاسف يعتمدون على التجارب ، حتى ان بعض اساتذة الكيمياء يترفعون عن مسك انبوب الاختبار بايديهم بل يكتفون ببعض التجارب من قبل المساعد او الطالب بالذات ، ويجدون انفسهم ارفع من ان يختبروا بذاتهم ويشقون طلابهم بمعلومات نظرية معقدة هم انفسهم يبيدون عن فهمها . واني شاهدت في الغرب اساتذة كبارا ممن نالوا جائزة نوبل او ان تلامذتهم نالوا هذه الجائزة لا يترفعون عن عمل التجارب بالذات .

نحن اليوم في سبيل نهضة شاملة ، وما زالت في هذه البلاد امكانيات كثيرة من خامات معدنية غير مستثمرة وارض غير مزروعة على النمط العلمي الحديث ومصادر للطاقة والقوة . وكل هذه الامور تحتاج الى عمليات حصر وتقصى وتنظيم وتخطيط ،

انا كثيرا ما نظهر عدم اهمية الاختصاص ونلقى في روع الامة بصورة لا شعورية بان الاختصاصي الوطني هو دون الاجنبي لا من جهة المرات والعمل ، بل من حيث الماهية والجوهر . واعتاد البشر عند تكرار حادثين هما القيام بالتعميم والاستدلال بالشاهد على الغائب ، وبذلك نظن اننا وجدنا قانونا لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والحقيقة هي غير ذلك . ان الفروق بين الخبراء الوطنيين والاجانب هي فروق مرضية وليست جوهرية ، واذا اتيح للخبير الوطني ما اتيح للخبير الاجنبي لظهر نفس النتيجة .

متى نبدل التخاذل بالتعاون ونصبح بفضل النضج العقلي اخوانا متحابين ؟ لقد برهننا على اهليتنا في الماضي ، كما برهن نفر منا على اهليته في تلقي العلوم في العالم الاوربي والامريكي في الحاضر ، وكثيرا ما نسمع من علماء امريكيين هم من اصل عربي؟ فلماذا ياترى لم نبرهن على اهليتنا في الحاضر وفي الوطن العزيز ؟ وفي الحقيقة يجب علينا دراسة هذه النقطة الحيوية الهامة ، لا في سن القوانين بل في الدراسة العميقة وتجنب الاسباب المؤدية الى عدم الانتفاع من خبرات امثال هؤلاء . ولعل من اعظم المآسي في الوقت الحاضر في الحياة العلمية هجر نفر لا يستهان به من اهل الخبرة والعلم اوطانهم والانتماء الى امم مختلفة ورغم اني نهيت مرارا الى ذلك وناديت المربين في آخر كتابي عن « المثل الاعلى في الحضارة العربية » فلم يلق ندائي اذنا صافية . نحن اليوم بحاجة ماسة الى تعبئة علمية واسعة النطاق تشمل جميع المهن والطبقات لتأتي تلك التعبئة ، بل ذلك النفير بالثمرة المرجوة .

واذا طالعنا تاريخ العلوم وخاصة في العصر الحاضر لسنا دور العصامية في تركيز العلم فقد قال فولر « ان اول من حضر البولة بطريق التركيب

من المواد غير العضوية) ، وليبيغ (ابو الكيمياء الزرامية) . ولم يكن الاول استاذا في جامعة بل مدرساً في مدرسة صناعية ومع ذلك فقد ثبت اسمه في سجل الخلود .

ان التعبئة العامة تستلزم التعاون ، كما تعاون الفرق المختلفة في المارك الحاسمة . فهي لا تقتصر على رجال العلم والمال ومن في يدهم مقدرات البلاد فحسب ، بل يلزم ان تعدى الى اهل الخبرة العملية واهل الادب والفن .

واعتقد ان الادب والفن كماليان لا اساسيان كالزهر على مائدة الطعام ، ولكن اذا لم يكن على المائدة غير الزهور فلماذا يستطيع تناوله الجائع المسكين ؟ ان كثيرا من الافكار النظرية بقيت في ادمغة المفكرين لولا ما يتاح لها من عمال ماهرين ابرزوها الى حيز الوجود ، فان نظرية فاراداي في المجال المغناطيسي الكهربائي لها الفائدة العملية ، لولا ما يتاح لسيخس ذلك الحداد الماهر تركيب اول محرك كهربائي ، ولولا اديسون لما تمتعنا بالمصباح الكهربائي وانحاكي والصور المتحركة . . علم ومال وعمل هذه قوام الحياة الثلاثة التي لا بد منها لنهضة علمية حقيقية .

اما الفن والادب فلها صلة وثيقة بالعلم وتفتيح القابلية العلمية . نرى ذلك عند الفنانين والادباء القدماء ، فكل من زار مدينة فينشي في ايطاليا مهبط رأس ليوناردو دافنشي يجد ما اهداه هذا الفنان المبقر للعلم (1) . ولا ينكر احدا ما اهداه الشاعر الالماني غوته للعلم ايضا ، وعندما كان وزيراً للمعارف ساهم مساهمة فعالة في تقديم المخترعين والمكتشفين .

واذا نظرنا الى ادبنا القديم نراه على اتصال وثيق بالعلم . ولعل ابرز شخصية تمثل ذلك هي الجاحظ (2) . اما اديبنا في العصر الحاضر فالكثير

(1) لقد اقيم لهذا الفنان والعالم الكبير في مدينة فلورنسا و فينشي من ايطاليا مهرجان بمناسبة مرور 450 عاما على وفاة هذا المبقر . وقد القى محرر هذه الاسطر محاضرة بعنوان : « ليوناردو دافنشي رائد البحث العلمي الطبيعي في اوربا » . بين فيه اهميته في البحث واسبقيته لفرنسيس بيكون المصروف حتى الآن انه الرائد لذلك . ولقد اظهر عالمان بان هذا العالم والفنان الكبير استقى بعض معلوماته عن العرب .

(2) لقد اشتركت في المؤتمر العشرين لتاريخ الطب الدولي العشرين وقدمت بحثا باللغة الالمانية بعنوان : « علم الحياة عند الجاحظ » وبينت في هذا الموضوع اسبقيته لباستور وداروين وغيرهم من كبار العلماء . وقدمت نسخة من هذا البحث الى المجلس الاعلى للعلوم في دمشق .

منهم بعيدون عن الروح العلمية المصرية ولا يجارون متطلبات الزمن . ندموا الإدباء الى التجند في هذه الصفوف ، لان الحاجة ملحة والتقصير الذي وقعنا فيه يضطرنا الى ان نوجه نداءنا اليهم لتصوير الزمن الذي نحن فيه والواجبات المحتمة علينا .

نحن واقفون على شفاجر ف هار، وان الكشف الحديثة من الطاقة الذرية الى الهيدروجينية الى الكوبلتية الى الصواريخ الموجهة تجعل حياة هذا الكوكب الذي نعيش فيه في خطر ، فعلى رجال

الفكر من العرب ان يصرخوا صرختهم لايقاظ الضمير الانساني من جهة ولبعث المروءة بين المواطنين من اجل التعبئة العلمية الجديدة التي يلزم ان تتناول جميع الصفوف من أبناء الامة من جهة اخرى ، ولكن لا لاجل افناء البشرية والقضاء عليها ، بل من اجل سعادة الانسان ورفاهيته .

لقد كتبت كثيراً في هذا المضمار ولم اجد أي مدى لكلماتي ، فكانها صيحة في واد أو صرخة في رماد ،

معطيات الاداب الانسانية

في اطار توسيع شبكة الثقافة العربية وتطعيمها بما قد يفيدها من خلاصات الثقافات الاجنبية وتوطيد دعائم التبادل بين معطيات الاداب الانسانية في نطاق اوسع ، يعتزم المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي تنظيم دراسات شاملة حول مقومات ومظاهر ثقافة كل امة في مواسم موقوتة مع دراسة مقارنة مع الحضارة العربية .

ولذلك فهو يقترح لسنة 1970 تنظيم موسم ثقافي على الصعيد العالمي تشارك فيه دول مختلفة بدراسات وابحاث تتصل بأداب كل امة ومميزات هذه الاداب .

وقد طلب من بعض الباحثين ان يوافوه بما ستجود به قريحتهم في هذا الباب لتوزيعها في العالم على نطاق واسع .

وتفضلوا بقبول خالص تحياتنا، والسلام .